﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: 98 - 99]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

أمرُ الرّسولِ الأكرمِ بالتّسبيحِ والعِبادَةِ، دفعًا لما ذُكِرَ سلفًا مِن ضيقِ صدرِه بما يقولون

لمّا أخبر اللّهُ تعالى عن ضيق صَدرِ رسولِ اللّه ﷺ بما يقولون، فمرَّةً يفترون على اللّهِ، ومرَّةً يُكذِّبونَ القرآنَ ويجعلونه عِضينَ، وأُخرى ينسبون رسولَ اللّه ﷺ إلى السِّحر أو إلى الجنونِ أو إلى الفِريةِ، ومثلُ ذلك يعْظُمُ على المَرءِ ويأنَفُ منه؛ قوّى اللّهُ قلبَ رسولِه على احتمالِه، وعلى ألّا يجعلَه سببًا للفتورِ في الإبلاغِ والبيانِ، فلذلك جاءت هاتان الآيتان[1].

ثمَّ أعلمَه تعالى بما يزيل ضِيق صَدره ﷺ بأن يفزع إلى تسبيح اللّه تعالى وتحميدِه؛ إذ ذِكْرُ اللّهِ تعالى يُطمئن القلوبَ المؤمنة، فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

ولمّا أمره بعبادة خاصَّة أتبعه بالعامَّة، فقال: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾: يدور معنى اللَّفظ على ثبوت الشّيء وتحقيقه ووضوحِه، ويَقِنَ الأمرُ: ثبتَ ووضحَ، واليقينُ من صفة العِلْم فوقَ المعرفة والدّرايَة وأخواتها، ويفيد تحقيقَ الأمر، ويقال: عِلْمُ يَقينٍ، ولا يقال: معرفةُ يَقينٍ، وهو سكونُ الفَهْم مع ثبات الحُكْم[3]، واليقينُ في الآية بمعنى المَوت؛ لأنَّه موقَنٌ به، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ٤٧﴾ [المدثر: 47][4].

(1) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 203.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/91، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/173، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/347.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (يقن).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 240، وابن جرير، جامع البيان: 17/159، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/675، 22/456.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدّعوةُ للتّسبيح والحمد والسّجود، والثّباتِ على ذلك إلى آخر رمق في الحياة

لمّا أخبر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أنَّه يعلم منه أنَّه يضيق صدرُه بسبب ما يقوله الكفّار المُستهزئون في اللّه وفي رسولِه؛ أمره بما يُزيل هذا الضّيق، فقال له ما معناه: فافزع إلى ربّك عند ضيق صدرك، وسَبِّح بحمده شاكرًا له مُثنيًا عليه، وكن مِنَ المُصلّين للّه العابدين له؛ يَكْفِكَ اللّهُ من ذلك ما أهمَّكَ، واستمرّ في عبادة ربّك مُدّة حياتِك حتّى يأتيَك الأمرُ اليقينُ علمُه ووقوعُه، وهو الموتُ الّذي هو موقَن به، وامتثلَ رسولُ اللّهِ ﷺ أمرَ ربّه، فلم يزل دائبًا في عبادة اللّه حتّى أتاه اليقينُ من ربّه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ التّفريعِ على ضيق الصّدر:

علاجُ ضيقِ الصّدرِ بالتّسبيح والتّحميد وكثرة السّجود

تُفيد الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ﴾ ترتُّبَ الأوامرِ في الآيتين وتفريعَها على ضيق الصّدر، بمعنى: أنَّ ما بعدَها سببٌ لإزالة ما قبلَها[2].

ويحتمل أن تكون الفاءُ هي الفصيحة التي تفصِحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ[3]، والتّقدير: إن ضاق صدرُك بما يقولون، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾.

وفيها معنى التّرتب والتّفريع كذلك، فإنَّهُ تَعالَى لمّا أَمَرَهُ في الآيتين بِأَرْبَعَةِ أشْياءَ بالتَّسْبيحِ والتَّحْميدِ والسُّجودِ والعِبادَةِ، وجعلَها مترتّبةً على إزالة ضيق الصّدرِ؛ أفادَ أنَّ هذه الأوامرَ الأربعةَ تُزيلُ ضِيقَ الصَّدر، وتُفيدُ انْشِراحَه، وتوجِبُ ذهابَ الهَمِّ والغَمِّ والكَدَرِ، ففي الآيتين إرشادٌ له ﷺ ولكلِّ مؤمنٍ إلى ما يُكشَفُ بِهِ الغَمُّ، كأنَّه قيل: افعلْ ذلك يَكْشِفْ عنكَ ربُّكَ الغَمَّ والهَمَّ الذي تَجِدُه في صدرك.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 267.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4118.

ولـمّا كان أعظمُ ضيقٍ يُصيب المؤمنَ هو الافتراء على اللّه تعالى والاستهزاء برسولِه ﷺ وبالقرآن، وكان التّسبيحُ والتّحميدُ والصّلاةُ والعبادة دواءً لإزالة هذا الهَمّ العظيم؛ كان الأولى والأحرى أن تُزيل هذه الأمورُ الأربعةُ ضيقَ الصّدرِ الأدنى، والهمَّ الأخفَّ[1].

دلالةُ الجمعِ في التّسبيح والسّجود بيَن القول والعمل:

الرّبطُ في السّياق بين فعلِ القلبِ وفعلِ الجسد، مِن دقّة البيان

لَمّا كانَ الصّادِرُ مِنَ المُسْتَهْزِئينَ يجمع بينَ اعتقادِ القلبِ فيما يستهزئون فيه، وعملِ الجارحة، وهو القول الذي يَقولونَه في الرَّسولِ ﷺ وفيما جاءَ بِهِ؛ أمَرَ اللّهُ تعالى نبيَّه بما يُقابِلُ ذَلِكَ مِنَ التَّنْزيهِ للّه عَمّا نَسَبوا إلَيْهِ مِن اتِّخاذِ الشَّريكِ مَعَهُ، مَصْحوبًا بِحَمدِهِ والثَّناءِ عَلَى ما أسْدَى إلَيْهِ مِنْ نِعْمَةِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ والتَّوْحيد، وغَيْرِها مِنَ النِّعَم، فهَذا في المُعْتَقَدِ والفِعْلِ القَلْبيِّ؛ وبما يقابل ذلك مِنَ السُّجودِ، وهو من فعل الجارحةِ، فجَمَع في الأمرَين بين فِعْلِ القَلْبِ وفِعْلِ الجَسَدِ[2].

دلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَسَبِّحۡ﴾:

إرادةُ القــول بالتّسبيح، واعتقادُ القلبِ بالتّنزيه، معالجةٌ للكَرب الّذي كان فيه

يحتمل أن يكون المرادُ من لفظ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ المعنى المُتعارف عليه، وهو الأمرُ بقول: (سبحانَ اللّه، والحمد للّه)، أو بقول: (سبحانَ اللّهِ وبحمدِه)، والمعنى: فافزع إلى اللّه تعالى فيما نابَكَ بالتّسبيح والتّحميد؛ يَكفِكَ ويكْشِفِ الغَمَّ عنك، ويحتمل أن يكون المرادُ من لفظِ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ معناه اللّغويّ؛ لأنَّ التّسبيحَ هو التّنزيه، أي: فنزِّهْهُ عمّا يقولون، حامِدًا له على أن هداكَ للإيمان[3].

الغرضُ مِنَ الأمر بيَن التّعيين والعمومِ:

الأمرُ بالتّسبيح والصّلاة عند ضيق الصّدر، أمرٌ عامٌّ لكلِّ المؤمنين

جاء الخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بالأمرِ، وإن كان مع مخاطبٍ معيَّنٍ، وخَصَّ اللّهُ تعالى في

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/214، والآلوسي، روح المعاني: 7/328.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/328.

هذه الأوامر رسولَ اللّه محمَّدًا ﷺ، لكنّها عامَّةٌ في سائر النّاس[1]، وهذا مِن عظيم نِعَم اللّه على خَلْقِه، فإنَّه ما مِن أحدٍ إلّا ويَضيقُ صدرُه بقولٍ أو عملٍ، فأرشدنا اللّهُ تعالى إلى ما يزيل الضّيقَ بالفَزَع إلى التّسبيح بحمد اللّه، وإلى الصّلاة وعبادةِ ربِّ العالمين.

فائدةُ حرفِ الباء في قوله: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾:

مَن سبَّح اللهَ تعالى فقد أثنى عليه بما يليق بجلاله

الباء في قوله تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ للمُلابسة، بمعنى لِيَكُن تسبيحُكَ مُلابسًا لحمد ربِّك[2]، فيُفيدُ أنَّ تسبيح اللّه تعالى وتنزيهَهُ عنِ الشّريك؛ حمدٌ له تعالى وثناءٌ عليه، ويؤيّد هذا المعنى أنَّ الجارَّ والمَجرور: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ في موضع نصب، حالٌ مِنَ الفاعل المُستَتِر، وهو مِنَ الحال المُحقّقة المقارنة، والتّقدير: فسبِّح حالَ كونِكَ حامِدًا لربِّك.

فائدة الإضافة في قوله: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾:

الحمدُ لا يليق إلّا لله تعالى، فهو المُختصُّ به سبحانه

لـمّا أُضيف الحمدُ إلى مفعوله، أفادتِ الإضافةُ معنى الاختصاص، بمعنى: أنَّ الحمد لا يكون إلّا لربِّك، ومثله الإضافة في ﴿رَبِّكَ﴾، فهي على الاختصاص، بمعنى: ليس لك ربٌّ سواه.

سببُ اختيارِ لفظِ ﴿رَبِّكَ﴾:

تسبيحُكَ بحمد ربِّك، تسبيحٌ لمُدَبّر مُحسن إليك بالنِّعم العِظام

لم يقل: (بحمد اللّه)؛ لأنّ في التّعرض لعنوان الرّبوبيّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، ما لا يخفى مِنَ اللُّطف به عليه الصلاة والسلام، ففيه إيذانٌ بأنَّ تسبيحَك بحمد ربِّكَ هو تسبيحٌ لمُدَبِّر أُمورِكَ ومُربّيك، والمُحسنِ إليكَ بالنّعم العظيمةِ، وفيه إشعارٌ بعِلّيَّة الحُكم، أي: بالأمر بالتّسبيح[3].

مناسبة الوصل بالواو في قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

تقديمُ القولِ باللّسانِ على الفعل بالأركانِ

عطفَ تعالى قولَه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ على ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ

(1) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 203.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/204.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/93، والآلوسي، روح المعاني: 7/329.

رَبِّكَ﴾؛ ليكونَ مِن عطفِ الطّلب على الطّلب، على معنى طلبِ التّشريك في الأمرين، ولإفادة تقديمِ القولِ باللّسانِ في الثّناء على اللّه تعالى على الفعل بالأركانِ.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿وَكُن﴾:

كمالُ العبوديّة لله تعالى، أن يكون شأنُك هو السّجودُ له

أفاد التّعبيرُ بلفظ ﴿وَكُن﴾ أن يكون شأنُكَ وعادتُكَ هو السّجود، بحيث يكون كونًا جِبِلّيًّا لا انفكاكَ له[1].

بلاغةُ التّعبيرِ في تركيب: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

أفضليَّةُ السّجودِ لله تعالى، في الكينونة مع جموع السّاجدين

التّعبيرُ بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أبلغُ مِن أن يقول: (وكن ساجدًا)؛ لأنَّه أمرٌ له بالسّجودِ، وأمرٌ بأنْ يكون مع جماعةِ السّاجدين، فكأنَّه على معنى الأمرِ بتكرير السّجود والدّوام عليه، وفيه إشعارٌ بأفضليَّة السّجود مع الجماعة، أي: أفضليَّةِ صلاةِ الجماعة.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة اسم الفاعل:

مَنْ أكثرَ مِنَ السُّجودِ لله كانَ مِنَ السّاجدين

عبّر بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ للإشعار بأن يكون السّجودُ وصفًا ثابتًا له، وأن يكون مِنَ العريقين في السّجود، ولا يكون هذا المعنى إلّا بكثرة السّجود واعتيادِه، بحيث يكون وصفًا دائمًا له[2].

بلاغةُ المَجاز المُرسل:

شرفُ السّجودِ لاشتمالِه على التّسبيح والتّذلُّلِ لله

عبّر عنِ المصلّين بـ ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[3]، على طريق المَجاز المُرسل، مِن إطلاقِ الجُزء على الكُلِّ[4]؛ ونُكْتَتُه: الإشارةُ إلى شَرف السّجودِ المُشتمِل على التّسبيح بالحمد والتَّذلّل والدّعاء، وما ينبغي مِنَ الدّعاء فيه، لا سيما عند الشّدائد، فذَكر مِنَ الصّلاة حالةَ القُرب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/469، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/674، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.

(4) الشّهاب، عناية القاضي: 5/544.

مِنَ اللّه تعالى، وهي السُّجود، وهي أكرمُ حالاتِ الصّلاة وأقْمَنُها بنيل الرَّحمةِ، والاستعانةُ بالصّلاة يكون في كلِّ الحاجات، فكيفَ في إزالةِ الضّيق عن الصّدر؟ فقد قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، وكان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى(1)، فهذا منه عليه السلام أخذٌ بهذه الآية(2).

نُكْتَةُ عدمِ تقييدِ السّجود:

لا ينبغي أنْ يخطرَ في بالِ عاقلٍ إيقاعُ السّجودِ لغير الله تعالى

في عدمِ تقييد السّجودِ بأن يقال: (وكن مِنَ السّاجدينَ له)، أو (مِنَ السّاجدينَ لِرَبّك)؛ إشارةٌ إلى أنَّه ممّا لا يكاد يخطر في البال إيقاعُ السّجود لغير اللّه تعالى(3).

مناسبةُ العطفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ﴾:

عبادةُ اللهِ تعالى ليست مختصَّةً بالذِّكر والصّلاة فقط

عطفَتِ الواوُ العمومَ على الخصوص؛ لتُفيدَ إدامةَ العبادةِ والاهتمامَ بها، ودفعَ توهّم تخصيصِها بالتّسبيح بحمد اللّه والصّلاة، كما أفاد العطفُ تأكيدَ الأمرِ المُخَصَّصِ، أي: التّسبيحِ والصّلاةِ؛ لدُخولِهما في: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾.

بلاغةُ إظهارِ ما حَقُّه الإضمارُ:

عبادةُ اللهِ تربيةٌ مِنَ الله تعالى، وإحسانٌ منه إلى عبادِه

كان الظّاهرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أن يقال: (واعبده)؛ لتقدّم عنوان الرّبوبيّة في قولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، فجاء الكلامُ على خِلاف مقتضى الظّاهرِ؛ بإظهار ما حَقُّه الإضمارُ؛ لتقرير معنى الرّبوبيّة لِمَن يَعبُدُ اللّه تعالى، وللإشعار بأنَّ العبد يجبُ عليه أنْ ينظر إلى إحسان اللّه إليه في عبادتِه، وأنَّ عبادةَ اللّه تربيةٌ مِنَ اللّه تعالى وإحسانٌ منه إليه.

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (1319)، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/329.

فائدة ذكرِ الرُّبوبيَّة:

لمّا تعلَّق الفعلُ ﴿وَٱعۡبُدۡ﴾ بقوله: ﴿رَبَّكَ﴾، دونَ أن يقال: (واعبد إلهكَ)، وكان معنى الرّبوبيَّةِ هو الإحسانُ والتّدبير والقيام بأمر العبادِ وشؤونِهم؛ أشعرَ التّعبير بلفظ الرّبوبيةِ أنَّ عبادة الله تعالى هي في مقامِ الشّكر على إحسانِ المُحسن وتدبيره لأمور عبدِه، والقيام بشؤونه، كما أشعرَ الأمرُ بعدم الإخلالِ بالعبادة، والمعنى: دُم على عبادة المُحسنِ لك، المُدَبّر لأُمورِك، ولا تُخِلّ بالعبادة حتَّى يأتيَك اليقين[1].

العبادةُ هي الشّكرُ على إحسانِ المُحسن، وتدبيرِه لأُمور عبدِه

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ ﴿حَتَّىٰ﴾:

عبّر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ دون أن يقال: (واعبد ربّك إلى أن يأتيكَ اليقين)؛ لأنَّ (حتَّى) لا تستعمل إلّا لما كان آخرًا، أو متَّصلًا بالآخرِ، ولأنَّها تُفيد أنَّ ما دخلت عليه يكون ذا أجزاءٍ وأقسام، وأنَّ الفعلَ المُتعدّي بها الغرضُ فيه أن ينقضيَ شيئًا فشيئًا حتّى يأتي عليه، فينتهي إلى الغاية[2]، فأفاد التّعبير بـ﴿حَتَّىٰ﴾ في الآية الإشعارَ بأنَّ الأمر بالعبادة مستمرٌّ مدّةَ انقضاءِ الحياةِ، وأنَّ العبادةَ تكون على سبيل التّقضّي للفعل شيئًا فشيئًا، ولا تكون دُفعةً واحدةً، وأنَّ نهاية التّكليفِ بالعبادةِ تكون بالموت.

العبادةُ تكون على سبيل التّقضّي، ولا تكون دُفعَةً واحدةً

بلاغة التّقييد بـ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ دون (أبدًا):

التّعبير بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أبلغُ من (أبدًا)؛ لاحْتِمالِ لَفْظِ (الأبَدِ) لِلَّحْظَةِ الواحِدَةِ ولِجَميعِ الأبَدِ؛ لأنَّ (أبدًا) ظَرْفُ زَمانٍ يَقَعُ على القَليلِ والكَثيرِ[3]، وإنّما يُفيد عمومَ الوقتِ إذا جاء في سياق النّفي، ولـمّا كان لفظ ﴿حَتَّىٰ﴾ يفيدُ معنى انقضاءِ الشّيءِ

العبادةُ تكونُ وقتًا فوَقتًا، وأزمانُ العبادةِ تنطبقُ على أزمان الحياة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/67، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/100.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 166، وما بعدها.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/64.

وقتًا فوقتًا، وليس دُفعةً واحدةً كما تقدّم؛ ناسبَ التّعبيرُ به لِلأمر بالعبادة في جميعِ أزمانِ الحياة؛ ليدُلَّ على أنْ تكون العبادةُ وقتًا فوقتًا، وأنَّ انقضاءَ الحياةِ يكونُ وقتًا فوقتًا، فهو على جهة انطباق أزمان العبادة لأزمان الحياة.

نُكْتَةُ التّقييدِ بحرف انتهاء الغاية الزّمانيَّة:

التّقييدُ بعُمومِ الوقتِ، حاصلٌ لإفادةِ استغراقِه بالعبادة

قد يقال: ما فائدةُ تقييد الكلام بقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، وكان قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ كافيًا في الأمر بالعبادة، كما أنَّ كلَّ واحدٍ يعلم أنَّه إذا مات سقطت عنه العبادات؟

وجوابه: أنَّهُ لَوْ قالَ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ مُطْلَقًا، ثُمَّ عَبَدَهُ مدَّةً أو مرَّةً واحدةً؛ كانَ مُطيعًا، فلمّا قيّده بالتّوقيت بغايةٍ زمانيّةٍ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾؛ أفاد التّقييدُ عمومَ الوقتِ واستغراقَه بالعبادة؛ لأنَّ المعنى: الأمرُ بالعبادةِ على التّأبيد، أي: لا تفارقْ ما أُمِرتَ به مِن عبادةِ ربّكَ، في جميع زمانِ حياتِكَ، وما دُمتَ حيًّا[1].

نُكْتَةُ إسنادِ (الإتيان) إلى (اليقين):

الموتُ هو المتوجّهُ إلى الحيّ، وهو الطّالبُ له، والإنسانُ في مقام انتظاره

لمّا كان اليقين هو الموتَ كان إسنادُ الإتيان إليه إيذانًا بأنَّ الموتَ هو المتوجّهُ إلى الحيّ، وهو الطّالبُ للوصول إليه، وأنَّ الإنسان في مقام انتظار الموت[2].

بلاغةُ اختيارِ لفظ (الإتيان) دون (المَجيء):

ليس بين الموتِ وبين العبد إلّا انقضاءُ الوقت، وحصولُ الأجل

عبّرَ بلفظ الإتيان دونَ المجيء؛ للإشعار بأنَّ إتيانَ الموت سهلٌ يسيرٌ، وأنّه ليس بينَه وبين العبد إلّا انقضاءُ الوقت وحصولُ الأجل.

نُكْتَةُ استعمالِ المضارع ﴿يَأۡتِيَكَ﴾:

عبّر بصيغة المضارع لتصوير حالةِ إتيان الموت، وتجدُّدِ حصولِه

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/676، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/187، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/64، وابن عادل، اللّباب: 11/497.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/93.

مع كلِّ إنسانٍ، وفيه إشعارٌ بأنْ يكون العبدُ في حالةِ عبادةٍ عند إتيانِ الموتِ له.

الحثُّ على أنْ يكون العبدُ في حالةِ عبادةٍ عند إتيانِ الموتِ له

نُكْتَةُ تقييدِ إتيانِ اليقين بضمير المخاطَبِ:

لـمّا أسنَد تعالى إتيانَ اليقينِ إلى ضمير المُخاطَب المُعيّن في قولِه تعالى: ﴿يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ وهو الرّسول ﷺ؛ أفاد أنَّه ما من إنسانٍ إلّا ويأتيه الموتُ، فأصلُ الخطاب وإن كان مع معيّن إلّا أنّه قُصِدَ به العمومُ؛ لإفادة تحقّقِ الأمر بالعبادة لكلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ.

السّعيدُ مَن يُباغتُه الموتُ وهو مستغرق في عبادة ربّه

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾:

(أل) هنا للعهد، وهو الموت، فكأنَّه ليس من أمرِ العِلْمُ بإتيانه يقينٌ لا شكَّ فيه مثلُ الموت.

ليس هناك يقين أشبهَ بالشّكّ منَ الموت

مجازُ التّعبير في تسمية الموتِ باليقين:

سُمّيَ الموتُ يقينًا على طريق المَجاز، بمعنى كونِ لحاقِه بالعبدِ يقينًا مُتحقِّقًا، ويحتمل أنّه سمّي يقينًا بمعنى أنَّ العِلْمَ به يقينٌ لا يَمتَري فيه عاقِلٌ، فسُمّيَ يَقينًا تَجَوُّزًا، أيْ: يَأْتيكَ الأمرُ اليَقينُ عِلْمُهُ ووُقوعُهُ، وليس من شيءٍ يأتي يقينًا عندَ جميعِ البشرِ مثلُ الموتِ، ويزول بنزولِه كلُّ شكٍّ[1].

سُمّيَ الموتُ يقينًا لكونِ لحاقِه بالعبدِ مُتحقِّقًا يقينًا

بلاغة الكناية:

لـمّا كان اليقينُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ هو الموتَ؛ أفادَ التّركيبُ بلازمه الأمرَ بالعبادة مدّة استمرارِ الحياة، إلى حينِ انقضائِها بالموتِ، بأنْ لا تَخْلو لَحْظَةٌ مِنْ لَحَظاتِ الحَياةِ عَنْ هَذِهِ العِبادَةِ، ليُفيدَ أنَّ العبادةَ أوسعُ من معنى الذِّكْر والصّلاة، فتشمَلُ كلَّ شؤونِ الحياةِ[2].

العبادةُ تكونُ مُدّةَ الحياة، فلا تَخْلو لَحْظَةٌ مِنْ لَحَظاتِها عَنْها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/218، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/499، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/204.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/166.

بلاغة التّذييل:

هذه الجملة كالمَثل في حكايتها والتَّمثُّل بها

لـمّا كان معنى الكلام في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ على العموم والكلّيَّة، وكانت الجملة تأكيدًا لمفهوم الأمر بالتّسبيح بحمد الله وبالصّلاة، لدخولِهما في عموم العبادة؛ جِيءَ بها تذييلًا، لتكون كالمثل في حكايتِها والتّمثُّلِ بها؛ لعمومِ معناها وانطباقِها على كلِّ مؤمنٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّدرُ والقَلْب:

الصّدر أعمُّ مِنَ القلب، وهو مجمَعُ القِوى، ومنه تدخل الواردات إلى القلب

الصّدرُ ساحةُ القلبِ وبيتُه، وهو المَجْمَعُ الذي يحمل القلبَ، فمنِ الصّدرِ تدخل الوارداتُ إلى القلب، فتجتمع في الصَّدر، ثمّ تَلِجُ في القلب، فهو بمنزلة الدّهلِيز له، ومِن القلب تخرج الأوامرُ والإراداتُ إلى الصّدر، ثمّ تتفرّق على الجنود، فالقلبُ غيرُ الصّدر، وإنّما هو فيه، ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]، ومواقعُ استعمالِ القرآن لكلمة الصّدر مُفردًا وجمعًا، والحكم عليها بالشَّرْح، والحَرَج، والضّيْق، والشِّفاء، والإخفاء، والإكناد؛ ترشدُنا إلى أنَّه ليس المرادُ منه الصّورةَ المادِّيَة، ولا أجزاءَها المادّية، إنَّما المُراد القوى النّفسيّةُ المُستودعَةُ فيه، وأنّ الوَسْواسَ الخَنّاسَ يوجّه كيدَه ووَسْوَستَه دائمًا إلى هذه القلعة التي هي الصّدر؛ لأنّها مجمعُ القِوى، فهو أعمُّ مِنَ القلب(1).

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/263، وابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 384.